رسالة الجامعة المصرية

لحضرة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف العمومية

"في السادس من شهر مارس سنة ١٩٤١ ألقى حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية بدعوة لاحتفالات الجامعة المصرية هذه المحاضرة القيمة التي تبين رسالة الجامعة في الأمة المصرية وتوضح الأهداف الحقيقية التي يرى أنها يجب أن ترمي إليها وتعمل على تحقيقها . ويسر مجلة الشئون الاجتماعية أن تنشر النص الكامل لهذا البحث القيم تعميما لفائدته"

المحرر

سيدي مدير الجامعة

أشكر لكم ولزملائكم العلماء من رجال هــذه الجامعة دعوتكم إياي للتحدث عن رسالة الجامعة . ويسرني أن يكون هذا الحديث فاتحة لسلسلة مطردة من الأحاديث والمحاضرات المتصلة بالشؤون والمباحث الجامعية ، تلقى ها هنا في هذا العام والأعوام التي تليه ، ثم يكون نواة لمعهد شبيه بالكليج دفرانس في باريس وبنظائره من المعاهد في غير باريس من مدن العــالم الكبرى .

أيها السادة

ألقى سعادة مدير الجامعة محاضرة عن رسالة الجامعة بمدرج الطبيعة في كلية العلوم يوم ٢٩ ديسمبر المــاضي . وفي هذه المحاضرة القيمة تناول الأستاذ الكبير أغراض الجامعة من نواح مختلفة ، فذكر أن الجامعة هي جماعة من العلمــاء أخلصوا للعلم فوقفوا عليه ملكاتهم ووقتهم ، يخدمونه كما يقف الرهبان أنفسهم على عبادة الله . وإلى جانب أولئك العلماء شبان أذكياء يخدمون العلم كما يخدمه أساتذتهم على السواء عن طريق التعاون من جانب الطلبة والارشاد من جانب الأساتذة ، وأن الجامعة لذلك وحدة اجتماعية متضامنة الأفراد الذين يؤلفونها من الأساتذة والطلبة والمتخرجين ، وأن من الخطأ الظن أن أغراض الجامعة تنحصر في شيء واحد هو تحضير موظفين لإدارة الحكومة ، وأن الجامعة القديمة التي أنشئت منذ ثلاثين سنة إنما أنشئت لتؤلف بيئة مستقلة فيها يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص ، على أساس من حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال .

وقد ختم الأستاذ الكبير محاضرته القيمة بالاشارة الى أن من رسالة الجامعة أن تقوم بالأبحاث العلمية فى العلوم والآداب التى تنتج عندنا كما أنتجت عند غيرنا الزيادة فى النظريات العلمية ، فتؤدى بذلك عن مصر واجبها من المشاركة فى رقى العلوم والمعارف ، كما أن من رسالتها تربية شبيبة الأجيال المتعاقبة لتهيئ للبلاد قادتها فى جميع مرافقها ، ومن رسالتها كذلك نشر الثقافة العامية والأدبية فى جميع طبقات الامة ومساعدة التطور الاجتماعى بكل مافى وسعها من ضروب التجديد . والجامعة بذلك كله مصدر إشعاع يشع منه التضامن القومى . ففيها يشب التضامن ويؤتى كل ثمراته بعد أن يكون قد ولد فى العائلة ونشأ فى المدرسة .

هذا الغرض السريع لما احتوته محاضرة مدير الجامعة يدلكم أيها السادة على تشعب الاغراض التى تعمل الجامعة لها ، وعلى جسامة الرسالة التى تنهض بأعبائها . والواقع أن هذه الرسالة فسيحة المدى متعددة النواحى ، فمن المتعذر الاحاطة بها فى محاضرة أو محاضرات . أليست هى رسالة العلم ؟ بل أليست هى رسالة المعرفة ؟ وضع رينان فى صدر شبابه رسالة فى "مستقبل العلم" استغرقت أربعين وخمسمائة صفحة ، لم تتناول مع ذلك إلا ناحية بذاتها مما يطلب الى العلم أن يقوم به لخير الانسانية . وما وضع من أمثال هذه الرسالة ، والرسائل التى وضعت عن طرائق التفكير ، وعن الادراك الانسانى للحياة ، وعن ترتيب العلوم ، وعن المنطق ، تعالج كلها احدى نواحى التفكير العامى ، تلك ناحية تنظيم الادراك الانسانى لحياة العالم كوحدة متماسكة تتخطى حدود الزمان والمكان — وهذه الرسائل قد استغرقت ألوف الصفحات وعشرات ألوفها . وهى مع ذلك لا تعالج الا جانبا من جوانب رسالة الجامعة . أمر ذلك شأنه لا يمكن أن تحيط به محاضرة أو محاضرات . وطبيعى ألا يطمع أحدنا اذ يتحدث عن رسالة الجامعة فى أكثر من أن يلقى قبسا من الضياء على نطاق ضيق حدا منها ، وكل رجائنا أن تلتقى هذه الاضواء وأن تشق طريقها خلال جماهيرنا المتعلمة وغير المتعلمة ليقدروا هذه المؤسسة الكبرى حق قدرها وليؤمنوا برسالتها وليؤيدوها باعتناق ماتدعو اليه وبإذاعته فى الناس.

ويجمل بى قبل أن أعرض عليكم وجهة نظرى فى رسالة الجامعة أن أشير الى الفكرة التى قامت بنفوس آبائنا حين فكروا فى انشاء هذه الجامعة منذ أكثر من ثلاثين سنة خلت. وضع المرحوم قاسم بك أمين ، وكان أمين سر اللجنة التى تألفت فى سنة ١٩٠٦ لإنشاء الجامعة ، بيانا عن أغراض اللجنة من سعيها أشار فيه الى نقص التعليم العالى بمصر فى ذلك العهد ، والى ضرورة ايجاد مؤسسة جامعية تنهض فى البلاد بأمر الدراسات العليا . وهذا التصوير الاولى للغرض من انشاء الجامعة قد رسمه لطفى السيد باشا فى محاضرته التى عرضت عليكم خلاصتها بالعبارة الآتية :

" إن صورة الجامعة على ما وصفت هى الصورة التى كانت بها الجامعة تتمثل فى خواطر الذين أنشأوا الجامعة المصرية منذ أكثر من ثلاثين سنة . كنا ننتظر أن جامعتنا ستؤلف بيئة

مستقلة فيها يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص ، وأن تحمل عن مصر واجبها فى المسئولية العالمية عن تقدم العلوم والفنون فى مدنيتنا الحاضرة.بل أنشئا الجامعة القديمة لنعارض بها التعليم العالى فى الحكومة الذى كان كل مايراد به هو ايجاد موظفين للإدارة الحكومية لا أكثرولا أقل" .

لعلكم تريدون أن تستبينوا صورة أكثر وضوحا عما كان قائما بنفوس منشئى الجامعة الأولين من رسالتها . اذن فاسمحوا لى أن أتلو عليكم فقرات من خطابين أساسيين فى نشأة الجامعة . أولهما ألقاه المغفور له قاسم أمين بك بمنزل المرحوم حسن زايد باشا بسراوه فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨ ، وألقى المغفور له عبد الخالق ثروت باشا الخطاب الثانى فى حفلة افتتاح الجامعة المصرية بمنتدى مجلس شورى القوانين يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ ، وهذه الفقرات كفيلة بالكشف عن هذه الصورة بوضوح وجلاء . ومن هذه الفقرات تتبينون مدى ما حققت الجامعة من هذه الرسالة وما لا تزال مطالبة بتحقيقه منها .

وقف المرحوم حسن زايد باشا خمسين فدانا بالمنوفية خالصة للجامعةفانتقلت اللجنة المؤلفة لإنشائها إلى داره بسراوه تقديرا لعمله . وفى الاجتماع الذى عقد هناك ألقى المغفور له قاسم أمين خطابا جديرا بأن يحفظه طلاب الجامعة فى مصر على تعاقب الأجيال جاء فيه :

" نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة،بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا إلى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم. نود أن نرى من أبناء مصر كما نرى فى البلاد الأخرى عالما يحيط بكل العلم الانسانى ، واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم، وعالما يرجع اليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الاخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها ، فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون " .

وبعد أن تحدث قاسم عن المتخرجين فى المدارس العالية بمصر وأنهم يعملون على مبدأ (اكسب كثيرا واتعب قليلا) وعن رأيه فى الكمال ومن هم أكثر الناس استعدادا له وعن التربية المنزلية وأثرها فى التعليم ، وعن حب المصريين العلم من قديم الزمن قال :

" إن لى لأملا عظيما أن يكون إنشاء الجامعة المصرية سببا فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال . وما حالة القلق والاضطراب التى نلاحظها فيها الآن إلا إيذان مطمئن يدلنا على أنها مملوءة بقوة عظيمة تطلب ميدانا تتصرف فيه لتتمتع بالتوازن اللازم لصحتها " .

ذلك الخطاب القيم الذى ألقاه وسلم منذ ثلاث وثلاثين سنة يمثل رسالة الجامعة كما تصورها هؤلاء الآباء الذين نفخر اليوم بأبوتهم . ولم يكن غرضهم من إنشاء الجامعة تهيئة الشبان لكسب الرزق وكفى بل تهيئتهم وتهيئة الأمة معهم لحياة إنسانية راقية تصبو إلى الحقيقة وتتوق إلى معرفتها بشوق وشغف بدنيانا منها ، وتتصور العالم ونظامه وسننه تصورا علميا يزيدها سلطانا على القوى الظاهرة والخفية فيه ، ويزيدها لذلك صلة به واستمتاعا بما يحويه وبذلك تصبح لسعادة قريبة منها ويصبح فى مقدورها النهل من وردها .

ولم يكن تصوير المغفور له عبد الخالق ثروت باشا لغرض الجامعة دون تصوير قاسم وضوحا وسموا ، فقد ورد فى خطابه بحفلة افتتاح الجامعة ما يأتى :

" نظرت الأمة بدا التربية العلمية فى مصر لا تزال ترمى إلى إعداد ناشئة تقوم بحاجات البلاد العملية وتخرج شبيبة يشتغل كل فى فنه وصناعته ، وأن البلاد خالية من منهل علمى يستقى منه طلاب المزيد من هذا العلم .

" ورأت أن العلماء فى البلاد الاخرى يكادون يأتون فى كل فرع من فروع العلم بالمعجزات تكاد من مبتكرات الخيال تخلف سمو يا جديدا جاء خبرها من أوربا وغيرها ونحن نكتفى من ذلك بمجرد الواحة بصة الفشل . وكم من مخترعات مبدعات وآيات بينات فتح الله بها على أولئك العلماء وحظنا فيها حظ المتفرج .

" ورأت أنه من النقص أن تبق مصر عالة على الامم بعد أن كانت تغذيها بالعلم والعرفان وأن تظل فى مثل هذا العصر خلوا من جامعة تسوغ لها طائفة تمجد ذكرها كما كان ذكرها ممجدا فى ماضى الأيام والعصور الخالية .

" رأت كل ذلك وحق لها أن تراه وتتدبره . فلا جرم أن قامت قومة واحدة تدعو إلى إنشاء تلك الجامعة ".

هذا التصوير الذى رسمه لنا المنشئون الأولون لفكرة الجامعة فى مصر يبين لنا أن الامة شعرت فى ذلك الوقت بأن التعليم فيها قاصر عن أن يمدها بأسباب الارتقاء الانسانى إلى الدرجات التى بلغتها الامم المتمدينة ، وأن هذا الشعور دفعها لالتماس الوسيلة إلى هذا الارتقاء فوجدتها فى التعليم الجامعى على ما هو معروف فى تلك الامم ، لذلك عملت على إنشاء الجامعة تمهيدا لغاية أتى ترجوها ، وحرصت على أن ينهض بأمرها علماء يحبون علمهم ، ويهبون أنفسهم له ، يكون منهم فيلسوف المحيط بالعلم الانسانى يصور لنا سنن الحياة وأغراضها تصويرا منطقيا كاملا ، والعالم الاخصائى فى علم بذاته ، أو فى فرع من فروع هذا العلم ، يجلو لنا نظرياته ويكشف عن جديد فيه ، والمخترع الذى يتخذ العلم وسيلة لتوجيه قوى الحياة وجهات جديدة والشاعر والاديب والفنان ممن يلهمهم العلم من صور الشعر والادب والفن آيات من جمال

العالم وجلاله. نشأت فكرة الجامعة تمهيدا لهذه الغاية وأملا فى أن تنتشر الروح العلمية فى التفكير المصرى وأن تمتد إلى الشرق كما انتشرت فى التفكير الغربى وامتدت إلى سائر أنحاء العالم ، وأن يعمل انتشار هذا الروح عمله فينهض بمصر وبالشرق إلى المكانة الإنسانية السامية التى تطلع إليها هؤلاء الآباء ، فدفعتهم وطنيتهم الصادقة الصامتة إلى الجد لبلوغها .

وقد بلغت هذه الفكرة من الداعين اليها مبلغ الإيمان . لما فتحت الجامعة أبوابها وبدأ الناس يؤمونها قام فى وجهها من يناوئها ويحارب جهودها ، ثم كانت قوة الفكرة التى أنشأتها وكان إيمان القائمين بأمرها خير كفيل بالتغلب على كل عقبة لجت أو مناوأة ظهرت . فى سنة ١٩١١ أذاع المغفور له الملك فؤاد الاول ، وكان يومئذ صاحب الدولة الامير أحمد فؤاد باشا رئيس الجامعة المصرية ، نداء وجهه إلى أبناء وطنه جاء فيه :

"رغم ماصادف مشروعاتنا من الاقاويل الباطلة والعنت الذى أريد به وضع حجر العثرة فى نهضة جامعتنا ، لم يلبث عملنا الجليل المحبوب أن ثبتت دعائمه . ولاغرابة فى ذلك . فإن العامل القوى الذى يأخذ بناصرنا إنما هو سعينا فى خير بلادنا . ولا شك أن نفع شباننا الاعزاء هو فوق كل المقاومات والانتقادات المقصودة ، وأن رغبتنا الشديدة فى تحقيق هذا النفع وإخلاصنا فى إحياء العلم بمصر يكسبنا القوة والثبات والدأب فى هذا العمل. وقد أعرت قلبى فى سبيل هذه الغاية حتى يتسنى لأبناء وطنى أن يأخذوا حظهم من العلم والعرفان وينصرفوا الى إحياء نضارة لغتهم وآدابهم وفنونهم العظيمة. ويسهل عليهم تحقيق هذه الأمنية الجليلة حينما يستقون عزيمتهم وعلمهم من مجد أجدادهم وعلومهم التى كادت تكون فى عالم النسيان حينا من الدهر . ولا وسيلة لهم للوقوف على حسبهم وتاريخهم وفهم حقوقهم وقيامهم بواجبهم إلا بالرجوع الى هذه المصادر العزيزة ، وبذلك يعيدون كنوز العلوم العربية القديمة التى نأخذها الآن عن الغرب . وكما أن ضوء النهار بعد الليلة الحالكة الظلام يتجدد بنور الفجر كذلك روح النهضة العلمية فى مصر بعد أن كانت مستغرقة فى سبات عميق حينا فى الدهر سيكون لها شأن عظيم فى إحياء ذكرى ماضينا الذى كان ولا يزال مقرونا على الدوام بالمجد والعظمة .

وبعد أن أشار رحمه الله الى ماقامت به الجامعة فى السنوات الثلاث التى انقضت منذ افتتاحها ختم هذا النداء بعبارات أذكر منها قوله :

"إن جل أمانينا والغاية التى نبغى الوصول اليها محصورة فى أن نعيد الى الشبان المصريين استقلالهم العقلى ونمهد لهم الوسائل المعنوية لرقى مواهبهم .. فاكتساب العلوم ونمو الذكاء وانتشار الأفكار ليس امتيازا خاصا بأمة دون أمة بل هو حق الشعوب على اختلاف أجناسها ومن واجبها أن تتعاون على تأييد السلم وتعمل لإيجاد الألفة بينها وتوحيد المصالح المتبادلة.

ويجب أن نغرس فى نفوس طلابنا هذه المبادئ وأن نبرهن على ثبات عزيمتنا وإخلاصنا فى تربية أبنائنا وأمتنا وتعلمهم كيف يؤدون الواجب وكيف يتخلقون بالأخلاق التى لا ينفع بدونها علم ولا ذكاء . وبهذه الطريقة يمكننا رقية آدابنا " .

حسبى هذه الفقرات التى تلوت عليكم من كلام رئيس الجامعة ومنشئيها الأولين ! ففيها من فيض الشعور بالحاجة إلى الجامعة شوق لحقيقة وحرصا على استعادة المجد التليد لهذه البلاد ما يعبر عن احساسهم القوى الصادق بحاجة بلادهم الى نهضة قومها هذه المؤسسة التى أنهضت الأمم حيثما نهضت ! والتى كانت وستبقى أبدا مصدر الاشعاع القوى لضياء العقل الإنسانى ! ولروح الانسانى .

ان الحاجة التى أدت الى إنشاء الجامعة المصرية ، والتى عبر عنها المغفور له الملك فؤاد بالحاجة الى إعادة الاستقلال العقلى للفكر الإنسانى ، هى بعينها الحاجة التى أدت فى مختلف العصور الى إنشاء الجامعات فى أوربا وفى غير أوربا ، وهى بعينها الحاجة التى أدت فى الأزمان السالفة الى قيام المصلحين والفلاسفة لتحطيم الجمود العقلى ، وفك الفكر الانسانى من القيود التى فرضها عليه التعلق بالعاجلة ، والخضوع لأحكام الحياة المادية ، والاذعان فى سبيل هذه الحياة لسلطان البطش ، والاستسلام لما يفرضه الأقوياء من هذه القيود ، واعتبارها حقائق ثابتة يؤمن الناس بها كأنها بعض سنن الكون التى لاسبيل الى تحويرها .

ونحن اذ نرجع إلى دعوة الانبياء ورسالة الرسل نجدها قائمة على استقلال العقل الإنسانى وتحرير الفكر من إسار هذه القيود وأكتفى فى هذا المقام بالإشارة الى الدعوة الاسلامية ، فقد دعا محمد قومه لينبذوا ماوجدوا عليه آباءهم ، ولينظروا الى الكون فيستبينوا سننه حتى يؤمنوا بالله . وهذا الايمان لايكون إيمانا حقا ما لم يهدنا اليه العقل المستقل والفكر الحر . يقول المغفور له الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، " إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لايكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحا بغير فقه فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله . ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته " .

والحاجة الى استقلال العقل وتحرير الفكر تثور فى أمم بدافع طبيعى مصدره سنة الاحتفاظ بالحياة الانسانية . ذلك بأن الحياة والحركة مقترنتان ، كما ان الموت والسكون متلازمان ، ليس فى الحياة حى لا يتحرك ، يستوى فى ذلك الجماد والنبات والحيوان . ذرات الجماد فى حركة متصلة ، وحركة الحياة فى النبات وفى الحيوان تشهدها أعيننا ، وعن حركة الافلاك والعوالم نشأ الليل والنهار والظلمة والنور ، وينشأ توازن الكون كله ، فلو أن هذه الحركة وقفت

هنيهة لتداعى الكون وانهد كيانه . وحركة العقل هى المظهر الأساسى للحياة الإنسانية . فاذا قيد العقل عن الحركة وحيل بينه وبين التفكير اخرشلت الحياة الانسانية فتأخرت الجماعات التى تصاب بهذا الشلل وخمدت حركتها الذاتية ، فتولى شؤونها غيرها وفرض عليها ألوان حياتها واستأثر هو من هـذه الحياة بخير الثمرات . عند ذلك تثور انسانية الامم فتشعر بالحاجة الى استقلال العقل وحرية الفكر ينهض بهما الانبياء والمرشدون والفلاسفة والمصلحون ، وتنهض بهما الجامعات التى تتولى حماية هؤلاء الفلاسفة وغيرهم من اضطهاد البطش وفتك الطغيان.

والحاجة الى استقلال العقل وحرية التفكير ليست شهوة تنطفئ متى تحققت ثم تتجدد بتجدد الدافع لها ، وانما هى ضرورة جوهرية لحياة الأمم قائمة على وجه الدوام ابتغاء عرض لا يلبث الناس إذ يظنون أنهم اقتربوا منه أن يروه فر من أيديهم وبعد عنهم ، ثم ظل مع ذلك يتراءى لهم فى بهاء جلاله وساطع ضيائه . هذا الغرض هو الحق ، وهو الكمال . والتماس الحق والكمال هو مثل الانسانية الأعلى فى الحياة . اليهما تتوق كل نفس مهذبة ، وكل أمة بلغت من مدارج الرقى الانسانى مقاما محمودا . لكن الجهود التى بذلت منذ ألوف السنين لمعرفة الحق ولبلوغ الكمال لما تتوج بالنجاح ، وان أدركت الانسانية من سعيها اليهما حظا غير قليل . كشفت من أسرار الوجود وسننه عن كثير كان يظن غيبا لا سبيل إلى رفع حجبه ، وأدركت أن الغيب لايزال يطوى أصعاف أضعاف ما كشفت عنه ، فهى شديدة التوق إلى معرفته ، دائمة الدأب للكشف عن أسراره ومعرفة سننه . والعقل المستقل والفكر الحر هما الاداة لا أداة غيرها لبلوغ ما يستطاع بلوغه من هذا الغرض .

وقد اتصل سعى الانسانية منذ أقدم العصور لتصوير الطريقة التى تكفل استقلال العقل وحرية الفكر ابتغاء الوصول إلى الحقيقة وإلى الكمال ، كما اتصل سعيها لتصوير هذه الحقيقة التى نتوق كلنا لمعرفتها ويبذل العلماء والموهوبون حياتهم لنشر نورها . أفيستطيع العقل ، بوسائل المعرفة الميسورة للإنسان ، أن يصل إلى معرفة أسباب الوجود الأولى وغايته الأخرى . أم أن مالدينا من أسباب المعرفة يقصر دون الأسباب والغايات ، وإن استطاع أن يستكشف من طريق معرفة الواقع سنن الكون ونظامه . وقد احتدمت معركة الجدل حول الطريقة المثلى لمعرفة الحقيقة عصورا طويلة ، ثم ظن الناس فى القرن الماضى أن المعركة انتهت إلى غاية حين تغلب التفكير الواقعى على ما سواه ، وحين أقر العلماء والفلاسفة فى بلاد أوربا المختلفة بتفوق نظريات أوجست كمت ، وبصدق قانونه عن حالات العقل الانسانى الثلاث : الحال الثيولوجية ، والحال الميتافيزيقية ، والحال الواقعية . لكن نظريات جديدة قامت فى هذا القرن العشرين كان برجسون وأينشتين بعض دعاتها ، وكان مرماها أن الطريقة العلمية المحدودة بحدود الواقع تقصر دون الحقيقة التى يتطلع الكل إلى ضيائها ، وأنا يجب أن نستوى للإلهام الانسانى لإدراك هذه الحقيقة ، كما يجب أن تقدر السببية

فى معارفنا وأن نحسب لها حسابها فى كل علومنا ومباحثنا . وبذلك عادت معركة الجدل على الطريقة إلى احتدامها من جديد .

وطالما اشتبك فى معركة الجدل هذه من كان قصدهم إلى تعطيل العقل واستقلاله وتفكيره وحريته ، ليتسنى لهم أن يتحكموا فى أقدار الناس ومصائرهم . وما أعظم الجهود التى بذلها دعاة الحرية الإنسانية للقضاء على تلك المآرب . وليس يسع كل محب للحقيقة إلا أن يغتبط حين يعلم أن كل جهد للحد من استقلال العقل ومن حرية الفكر كانت نهايته الفشل ، وأن النصر الذى أحرزه دعاة الحرية هو الذى أتاح للإنسانية أن تتقدم نحو الحق والكمال خطوات سريعة واسعة .

كفل هذا النصر كذلك أن تظل معركة الجدل حول الطريقة متجهة إلى الغرض منها. ولم تتجه هذا الغرض يوما إلى الحد من استقلال العقل ، بل إلى تنظيم هذا الاستقلال تنظيما يكفل للفكر الحر أن يبلغ المثل الأعلى من الحياة الإنسانية ، وذلك بتصوير الحقيقة التصوير العلمى الصحيح. وكانت الطريقة الواقعية هى التى كتب لها الفوز فى القرن الماضى كما سبق القول . ولا ينكر أحد أن هذه الطريقة الواقعية قد هدتنا إلى كثير من سنن الكون ونظامه قد يسرت للعلماء والفلاسفة من أسباب الكشف عن كثير مما كان محجوبا بحجب الغيب ، وأنها بذلك قد جعلت الإنسان أعظم سلطانا على قوى العالم الظاهرة والخفية. ثم إنها إذ وجهت الباحثين إلى التنقيب فى ماضى الإنسانية وحاضرها ، وفى ماضى العالم وحاضره لإثبات السنن الكونية إثباتا علميا ينفى عنها كل ريبة ، ولإقامة الصلة بين الناس أفرادا وجماعات وبين الإنسانية وعوالم الكون المختلفة على أساس من هذه السنن المقطوع بثبوتها — قد أتاحت للفلاسفة أن يقيموا المذاهب الفلسفية الواقعية المعتمدة على ما كشفت عنه العلوم كلها . وغاية هذه المذاهب أن تقربنا فى معروف الحياة من الحقيقة وأن تدنينا من الكمال .

كانت الجامعات فى قيامها برسالتها خلال العصور الأخيرة أكبر الفضل فى إحراز ذلك النصر . فقد نشأت الجامعات أول ما نشأت معاهد تمنح المتقدمين إليها بأمر الحاكم حينا ، وخلال ماضيها حينا آخر ، درجات تجيز لهم القيام على تعليم الناس . ثم صارت هذه المعاهد ملاجئ للعلماء تحمى مصالحهم وحريتهم وتحميهم من بطش ذوى السلطان بهم ، وتيسر لهم أسباب البحث ابتغاء الحقيقة وحرصا على بلوغ الكمال ، وكان دأبها فى جميع العصور أن تضع النظريات التى ينادى بها العلماء من رجالها ومن غير رجالها ، موضع التمحيص والنقد ، تقر منها ما تراه متفقا مع طرائق البحث المقررة لديها ، وتنكر ما لا يتفق مع هذه الطرائق . ثم لا ترى بأسا أن تجعل طرائق البحث نفسها موضع النقد والتمحيص من جديد .

وانما استطاعت الجامعات أن تكشف عن الحقائق وأن تمحصها بانقطاع رجالها للبحث انقطاع الرهبان للعبادة — على حد تعبير الأستاذ الكبير مدير هذه الجامعة . وعلماء الجامعات أقدر من غيرهم على التمحيص والنقد لأن البيئة الجامعية تجعل وسائل البحث كلها فى متناول أيديهم . فالمكتبات ، والمعامل ، ودور البيانات ، تجعل آخر الأبحاث فى جميع العلوم حاضرا فى كل وقت لدى من شاء منهم أن يقوم بتمحيصه ونقده ، وهذه البيئة ، وهذا الانقطاع للعلم والتخصص فيه ، يتيحان لرجال الجامعة تصوير الحقيقة فى عصرهم تصويرا يدنيها من أفهام المثقفين ، ويكفل لها أن تنتشر فى الناس وأن توجه مصير الجماعات .

ونشر الحقيقة فى الناس بتوجيه سلوكهم فى الحياة أفرادا وجماعات يتصل برسالة الجامعة بل هو جوهر هذه الرسالة . فالعلماء لايبحثون عن الحقيقة لمتاعهم الخاص ، وإن كان هذا المتاع عظيما بذاته حتى لا يقاس به متاع سواه ، وإنما يريدون الحقيقة لخير الانسانية إيمانا منهم بأن الحقيقة وحدها هى التى تدنى الانسانية من السعادة ، ومن الخير ، ومن الكمال .

وكل حقيقة اهتدى العلم اليها قد كان لها فى تقدم الانسانية من الآثار ما سبقت الاشارة اليه . لكن هذه الحقيقة مجردة قائمة بذاتها كالحقائق الرياضية ، أو متصلة بعالم غير هذا العالم الذى نعيش فيه كالحقائق الفلكية ، أو بغير الانسان مما فى هذا العالم كالجماد والنبات والحيوان — فكل ما كشف عنه البحث العلمى فى هذه الشئون وفى شأن الانسان قد نقل الانسانية خطوات ارتقت بها ثم كان انتشاره فى الناس مدعاة شعورهم بقيمتهم الانسانية شعورا يزداد سموا كلما ازدادت الحقائق التى نقف عليها وضوحا وثبوتا .

وانما استطاعت الجامعات نشر الحقائق التى اطمأنت اليها فى الناس بعد أن ذاع فيهم الإيمان باستقلال العقل وحرية الفكر ، وبعد أن أدركوا أن التعصب والعلم لا سبيل الى اتفاقهما ، وأن العقل الجامد الذى يأبى النظر فيما وجد عليه آباءه عدو للعلم بطبعه يزور من صور الحقيقة عن كل ما لم يألفه ، وينظر بعين البغضاء والحقد الى كل من يخالفه .

وقد يرجع الفضل الأول فى إذاعة الاستقلال العقلى بين الناس الى تفكير الرياضيين والأطباء وغيرهم من المشتغلين بعلوم الحياة فى طرائق البحث أيها أمثل لادراك الحقائق التى تتناولها هذه العلوم ، وبخاصة حينما طوعت هذه الطرائق للعلم أن يبسط سلطانه على كثير مما فى الكون بعد أن وقف على سننه وعرف القوى المختلفة فيه . هنالك انفسح المجال أمام العلماء فى الجامعات ، وأمام تلاميذهم الذين يعلمون الناس فى مختلف المعاهد لإذاعة الحقائق ولإقامة المذاهب وللدعوة والسعى لتنظيم الحياة على أساسها .

وهنا تشعبت المذاهب وتباينت النتائج فى البلاد المختلفة باختلاف طبائعها ، فاذا الطريقة الواحدة تؤدى فى انجلترا الى مذاهب غير التى أدت اليها فى فرنسا أو فى ألمانيا أو فى أمريكا

و إذا الثقافة الجنسية أو القومية يطبعها طابع يستمد كيانه من وجودها الخاص . و إذا الجامعات تعترف بهذا الطابع وتعمل على نشره ، مع دأبها على أن تجعل من الثقافات الاخرى موضع عنايتها وبحثها ؛ رجاء التوفيق بينها لمصلحة العالمية العامة .

هـذه ، أيها السادة هي الرسالة العظمى التي قامت بها الجامعات في البلاد المختلفة ، وهي بعينها ما أراده المنشئون الأولون للجامعة المصرية من انشائها . فماذا حققت هـذه الجامعة من رسالة العلم ، ومن إعادة الاستقلال العقلي والتفكير الحر لشبابنا . وماذا قامت به من واجب مصر العالمي للمشاركة في رقي المعارف الانسانية . ثم ماذا طبعت به ثقافتنا من طابع خاص يميزها عما سواها ؟ .

ختم الاستاذ مدير الجامعة محاضرته التي خصها لحضراتكم في صدر كلامي بعبارة قيمة جاء في صـدرها : "جامعتنا حديثة العهد الى حد أنها لم يتم بعد بناؤها ، ولم ينشأ بعد حتى لطلبتها ، ولم تستوف بعد أساتذتها من المصريين ، وان كانت لا تستغنى أبدا عن الاساتذة الزائرين ، ولما تطمئن الى استقرار التقاليد الجامعية — فرسالتها بتحقيق رسالتها ينبغى أن تكون متناسبة مع حداثة عهدها ومع حالها ووسائلها".

وهـذا تصوير للواقع صوره خير من يعرفه . على أننا يجب مع ذلك أن نشهد بجسامة المجهود الذي تم خلال السنوات التي انقضت منذ انشاء الجامعة في سنة ١٩٠٨ ومنذ أن ضمت للحكومة في سنة ١٩٢٥ وما قامت الحكومة به من انشاء مباني الجامعة ومستشفى فؤاد الاول بعض هـذا المجهود الضخم الذي استنفد مئات الالوف من الجنيهات . والذي أقام هـذا المعهد العلمي الجليل وهيأه بكل الاسباب التي تيسر للجامعة تحقيق غرضها . وهـذه المنشآت قد تمت كلها خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة . وفي هـذه الأثناء كانت الدراسات العلمية في معاهد هـذا المعهد تتقدم تقدما مطردا . ولست أريد أن أدلل على ذلك بنتائج عملها في المرحلة الجامعية الأولى ، مرحلة الليسانس أو البكالوريوس أو الدبلوم . فالمدارس العليا تمنح مثل هـذه الاجازات . وانما أذكر نتائج الدراسات العليا في الكليات الاربع التي تألفت منها الجامعة أول عهدها : كليات الطب ، والعلوم ، والآداب ، والحقوق . فقد أجازت هـذه الكليات اثنين وسبعين دكتورا ، ومائة واثنين أستاذا (ماجستير) خلا دبلومات المعاهد الخاصة وتبلغ ٥١٩ دبلوما .

قد لا يكون هذا العدد كبيرا بالقياس الى عدد السنين التي انقضت منذ انشاء الجامعة ، أو منذ ضمها الى الحكومة . وقد يبدو كذلك بنوع خاص عند مقارنته بمثله مما حصل عليه ابناؤنا في جامعات اوربا المختلفة . فأعضاء بعثات الحكومة وحدهم قد حصل مائة وستة وأربعون منهم على اجازة الدكتوراه ، وسبعة وأربعون على اجازة الاستاذية وثمانية عشر على الزمالة .

ولعل من حصلوا على مثل هذه لدرجات العلمية العليا ممن تعلموا على نفقتهم فى أوربا لا يقلون عددا عن أعضاء البعثات . لكن مع ذلك يجب أن نذكر أن جامعتنا لم تمنح الاجازات العلمية العليا فى السنوات الاولى لنشأتها ولا لصمها للحكومة . لان هذه الاقسام العليا انما أنشئت شيئا فشيئا بعد استكمال الجامعة وجودها العام فى سنة ١٩٢٥ . ولم تمنح واحدة من الكليات الاربع أية إجازة للدكتوراه الى سنة ١٩٣٠ وفى تلك السنة منحت كلية الطب وحدها هذه الإجازة لأربعة من أبنائها ، وفى سنة ١٩٣١ منحت هذه الاجازة لاثنين فى كلية الطب ولواحد فى كلية الحقوق ، وفى سنة ١٩٣٣ منحت كلية العلوم أول إجازة للدكتوراه فيها . وأما أول إجازة للدكتوراه فى كلية الآداب فلم تمنح إلا سنة ١٩٣٧ ولا يزل عدد هذه الإجازات العليا قليلا ، قلما زاد فى العام على ثلاث أو أربع ، اللهم إلا استثناء إذ منحت كلية الحقوق ست إجازات للدكتوراه فى سنة ١٩٣٨ ومنحت كلية العلوم عشر إجازات للدكتوراه فى العام الماضى .

ولم يقف الأثر المترتب على حداثة الجامعة عند هذا الحد فى أمر الدراسات العليا . فقد استعرضت عناوين الرسائل التى قدمت لإجازة الدكتوراه فى الكليات المختلفة لمصر وقارنتها بعناوين الرسائل التى وضعها المصريون الذين حصلوا على الدكتوراه من جامعة أوربا ، فاسترعى من هذا الاستعراض اقتحام طائفة من الرسائل التى قدمت للجامعات الأوربية للمذاهب العامة فى العلوم المختلفة واقتصار أكثر الرسائل التى قدمت إلى جامعتنا على بحوث تفصيلية ، دقيقة لا ريب ، فى مسألة بذاتها . ومرجع ذلك إلى أن البيئة الجامعية الأوربية قد بلغت من الاستقلال بذاتها أن أقامت صرحا من النظريات والمذاهب المختلفة فى شتى الفنون والعلوم ، أما بيئتنا الجامعية فلا تزال بحكم حداثة عهدها وبحكم المستوى العقلى العام المتأثر بماضينا المدرسى ، محتاجة إلى أن تقيم بناءها الذاتى ، وأن تقيم على أساسه مثل هذا الصرح العظيم من النظريات والمذاهب ، ليستطيع أبناؤنا اقتحام هذه المذاهب والنظريات ، ينقدونها أو يعدلونها أو يؤيدونها بما يتفق مع تصورهم للحق وما يدنى الحق من الكمال .

لسنا نطمع ، وهذه حالنا ، فى مطالبة أبنائنا أو مطالبة علمائنا ، بأن يبدعوا جديدا فى طرائق البحث العلمى . فهذه الطرائق ، بطبيعتها ، هى ثمرة التطور العلمى ، وتمثال العقل لمجموع هذا التطور فى مختلف العلوم ، وعدم اطمئنانه إلى كفاية الطريقة المقررة لبلوغ الغاية من الحقيقة ، أو وقوف هذه الطريقة فى سبيل تلك الغاية . ولا شك فى أنا نريد أن تبلغ جامعتنا هذا المبلغ . لكننا لا نزال بحاجة إلى تطبيق الطرائق التى سبقتنا الجامعات الأخرى إليها حتى نستنفد هذه الطرائق فى ميادين العلم والفن المختلفة . ويومئذ ينفسح المجال أمام العالم الممتاز ، والمفكر الممتاز ، ليبدع فى طريقة البحث العلمى جديدا .

أيها السادة

أشرت إلى أن من أجل جواهر رسالة الجامعة نشر التفكير الجامعي وإذاعته في الناس . والبيئة الجامعية المشتغلة بالدراسات العليا لا يمكن أن تكون بذاتها أداة هذا النشر ، فلا بد لها من وسائل تتصل بها وبين التفكير العام . ومن هذه الوسائل طرق النشر العام بالكتب والمجلات والصحف والإذاعة . لكن الوسيلة الناجعة التي تمهد لنجاح هذه الوسائل جميعها هي التعليم . لذلك كان من أهم ما اقترحه الخبيران العالميان اللذان استقدمتهما الحكومة المصرية عام ١٩٣٨ لبحث وسائل التربية والتعليم في مصر — وهما المستر مان والمسيو كلاباريد — إنشاء معهد التربية العالي وتغذيته بخريجي الجامعة ، وجعل إجازاته وحدها المؤهل الضروري لتولي شؤون التعليم في المدارس . وتلك هي الوسيلة المتبعة في جميع الأمم لإتمام الدورة العلمية الجامعية في مختلف أجيال الأمة من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ثم إلى الكهولة والشيخوخة في البيئة الجامعية نفسها . وقد أنشئ هذا المعهد بالفعل منذ سنة ١٩٢١ ، ولكني آسف إذ أقول إن المتخرجين فيه قصر عددهم ولا يزال قاصرا عن أن يمد المدارس في وزارة المعارف وحدها بحاجاتها الملحة للمدرسين ، وأنها كثيرا ما تضطر إلى تعيين مدرسين في مواد كثيرة لم يتخرجوا في المعهد ، وأن دورة التفكير الجامعي لا تزال لذلك متقطعة . ومن ثم لا تزال المدارس المصرية تجمع ألوانا متباينة من عقليات شتى يشعر القائمون على التعليم بما لتباينها من أثر في تكوين ناشئتنا من ناحية تربيتهم ومن ناحية ثقافتهم العامة ، ومن ناحية علمهم .

أيها السادة :

هذه وجوه من النقص نطمع كلنا في تلافيها . ويجمل بالحق إن أقول إن حداثة عهدنا بالجامعة ليست وحدها السبب في هذه الوجوه . فقد انفسحت ميادين حياتنا القومية في أواخر القرن الأخير فلم يكن بد من أن ينهض شبابنا المتعلمون في أوربا وفي مصر بالتبعات الجسام التي ترتبت على هذا التطور السريع ، ومن هؤلاء الشبان من أوفدتهم الجامعة منذ عهدها الأول ليكونوا أساتذتها والقائمين برسالتها . ومنهم من تخرجوا في هذه الجامعة وكانت تخرجوهم للغرض نفسه .

واطراد هذه النهضة ، ووثب البلاد جميعا إلى مكان المجد الواجب لها بين الأمم ، وتطلع الأمم العربية والأمم الشرقية إلى مصر ، واعتبارهم إياها الشقيقة الكبرى ولرأس المفكر فيما يجب هذا الجانب الفسيح من العالم في العصر الحاضر — هذا كله قد جعلنا أكثر احتياجا إلى الشدن متعلمين ، وأكثر من ثم احتياجا إلى فتح أبواب الدراسات العليا في التعليم الجامعي لعدد أكبر من العدد الذي يشتغل بها في الوقت الحاضر .

أما وذلك حالنا ، وتلك حاجاتنا ، فما أحرانا بأن نضاعف الجهد فى معاونة الجامعة على النهوض برسالتها كاملة فى إعادة الاستقلال العقلى لشبابنا ، وفى الكشف عن الحقائق العلمية وفى إذاعة هذه الحقائق بين الناس .

وصور المعاونة الواجبة للتعليم الجامعى كثيرة جديرة بالتفكير فى أيها أحرى بالتقديم . وأول ما يجب علينا أن نمدد جامعاتنا ليكفل تنافسها فى شتى ميادين العلم دقة إدراكنا للحقائق ، وليكون هذا التنافس لذاته سببا فى ذيوع الحقائق العلمية وانتشارها وعناية الناس بها . وإذا ذكرنا أن فى اليابان اليوم عشرين جامعة يدفع تنافسها نهضة اليابان إلى الأمام دفعا قويا سريعا أيقنا أن إنشاء جامعات عدة فى بلادنا فيه من الخير للعلم وللحقيقة ولهذا الوطن ما لا يجوز الإغضاء أو التغافل عنه .

ومن وجوه المعاونة تقرير مبدأ يقضى استقلال الجامعة بتقريره . ذلك مبدأ عدم قابلية أساتذتها للعزل أو للنقل على النحو المقرر عندنا لرجال القضاء الأعلى ، فتقرير هذا المبدأ يكفل استقلال الأساتذة من الناحية العلمية ، ويجب أن يكفل بقاءهم بالسلك الجامعى للنهوض بالعلم و برسالة الجامعة .

وثمة ألوان شتى من المعاونة على نهوض الجامعة برسالتها جديرة بأن تكون موضع درس خاص . ولعل رجال الجامعة لا يضنون علينا بمحاضرات فيها . فإذا تحققت أزالت عنا ما لا يزال قائما بنفوسنا من التردد العقلى ، وجعل الجرأة العلمية فى طبيعة شبابنا ، وفتحت أمامنا من أبواب التقدم ما طمع منشئو الجامعة فيه ، وما لا نزل نطمح نحن فى إدراكه .

أيها السادة :

أطلت فى القول . وإنما دعانى إلى هذه الإطالة إيمانى بجلال رسالة الجامعة ، و بأن اضطلاعنا بعبء هذه الرسالة ، حرصا على معرفة الحق و إذاعته فى وطننا ، هو الذى يدنينا من المكانة الواجبة لنا . فلمصر ماض مجيد طويل أضاءت العالم خلاله بنور العلم . والعالم أشد ما يكون اليوم احتياجا إلى هذا النور ينقذه مما تورط فيه . والجامعات هى التى تذكى هذا النور وتضىء به جوانب العالم المظلمة . وأطمع فى أن ننهض بجامعتنا لتحقق هذا الحلم العظيم إنى نعظم الرجاء ، وعلماؤنا ، وشبابنا الأذكياء ، قادرون بذكائهم ، وبصبرهم ، وباخلاصهم للحقيقة ، على أن يحملوا هذه الأمانة ، وأن ينهضوا بهذه الرسالة ، وأن يعيدوا لوطننا العزيز ، وللشرق كله ، مجدا طالما توج سماه هام أجدادنا ، وما أجدره أن يتوج هام أبنائنا وحفدتنا .